بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطبة الجمعة للشيخ مُحَمَّد خير الطرشان

موت العالم ثُلمة

الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا وقدوتنا مُحَمَّداً عبده ورسوله وصفيه وخليله، اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحبه الغر الميامين أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فيا عباد الله، فأوصي نفسي وإياكم بتقوى الله تعالى، وأحثكم على طاعته والتمسك بكتابه، والالتزام بسنة نبيه ومنهاجه إلى يوم الدين.

أيها الإخوة المؤمنون: أفتتح خطبة اليوم بقول الإمام الحسن البصري سيد التابعين رحمه الله تعالى: (موت العالم ثُلمةٌ لا يَسدها شيءٌ ما اختلف الليل والنهار) موت العالم ثُلمةٌ أي شَرخٌ وفَجوةٌ ومُصيبةٌ لا يَسدها شيءٌ ما اختلف الليل والنهار، ولَعل هذا الكلام هو فحوى حديث سيدنا رسول الله ﷺ: ((إن الله لا يَقبض العلم انتزاعاً مِن صدور العباد، ولكن يَقبضه بقبض العلماء)) [أخرجه البخاري].

أيها الإخوة المؤمنون: هكذا نودع علماء الأمة الإسلامية واحداً تلو الآخر، وعُلماء الأمة إنما هم نجومها ومصابيحها، بهم يهتدي الناس، إليهم يَرجعون في شؤون دينهم ودنياهم، وبهم يأنسون في قضايا الدين والحياة، ولذلك كان موت العلماء وفقدهم خطراً عظيماً، بل إن الأمر الأخطر مِن ذلك أن مَوت العلماء إنما هو علامةٌ من علامات الساعة، فقد قال النبي ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم)) [أخرجه البخاري] وقبض العلم إنما يكون بقبض العلماء، فإذا قبض العلماء ارتفع

العلم من الأرض، كما ورد في حديث آخر: ((حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً فسألوهم فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلّوا)) [أخرجه البخاري].

نعم أيها الإخوة: إن موت العلماء شرخ كبير في الأمة، لماذا أيها الإخوة موت العالم له هذا الخطر الشديد على الأمة؟ ربما لا يدرك بعض الناس خطر أن نفقد عالماً مِن علماءنا، ويقولون: وهل الموت الحق كتبه الله على كل الناس، أجل -أيها الإخوة- لا شك فيها، لا مرية في ذلك، كلنا نعتقد أن الموت حق، وكلنا نؤمن أنه لا يخلد في الدنيا أحد، ولو كان أحد أحق بالخلود لكان سيدنا مُحَّد ﷺ، أحقَّ البشر على الإطلاق أن يخلد إلى قيام الساعة، ولكن الله تعالى قدر علينا الموت، وحكم علينا بالفناء، لكن موت الإنسان العادي ليس كموت العالم، يَروي سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: (موت ألف عابدٍ أهون من موت عالم) موت ألف عابد زاهد متفرغ للعبادة والطاعة أهون على الأمة من موت عالم، لأن العابد ينفع نفسه، وأما العالم فينفع الأمة، ويترك علماً تنتفع به الأمة من بعده، لذلك عُدّ موت العلماء خطراً عظيماً، وكان سيدنا عمر ﷺ مِن علماء الأمة، بل مِن أفقه الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ولذلك لما مَات بَكاه الصحابة، بكاه زيد ﷺ، فقيل له: لم تبكي؟ أليس الموت حقاً؟ قال: إنما أبكي على الإسلام. أنا لا أبكي شخصاً يتمثل في عمر، إنما أبكي على الإسلام، مَن للإسلام بعد العلماء؟ مَن للأمة بعد العلماء؟ لهذا الأمر -أيها الإخوة- كان موت العالم خطراً كبيراً على الأمة، وينبغي على الأمة أن تصحو من رقادها، وأن تُعوض ما فاتها من إهمالها لأهل العلم، وعدم التفافها حولهم، وعدم تلقي العلم عنهم والأخذ عنهم مباشرةً، وأن لا نقف في يوم العزاء وفي يوم الرثاء، نُذَكِّر بآثارهم ونعدد مناقبهم، فإذا مَضت أيام العزاء انتهى ذكرهم، لا أيها الإخوة، علينا من خلال حديثنا عن العلماء وأهمية وجودهم أن نغتنم حياتهم، وأن ننتفع بعلمهم، وأن نلتف حولهم، وأن نُعظم شأنهم، وأن نُكبر مقامهم، فإكبار أهل العلم وتعظيمهم مِن الدين، فقد ورد أن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله

تعالى عنه صلى جنازةً خلف زيد بن حارثة ﵁، فلما انتهى زيدٌ من الصلاة قام إلى ناقته، فأمسك عبد الله بن عباس بخطام الناقة، وأراد أن يقودها ليركب عليها زيد، فقال: يا ابن عمِّ رسول الله، أتفعل بي هذا؟ قال: نعم، إنا نعظِّم العلماء. إنا أهل بيت رسول الله نُعظِّم العلماء، وعلى الأمة أن تعظم علماءها، وأن تعرف قدرهم في حياتهم وبعد مماتهم، وأن تُفيد من هذا العلم العظيم الذي حفظوه في صدورهم وكتبوه في مؤلفاتهم، وجعلوه للأمة وقفاً لكي تفيد منه وتنتفع.

أيها الإخوة: لماذا موت العالم ثُلْمة مصيبة، ليس هناك أعظم من الدين، وموت العالم مصيبة في الدين، مصائب الدنيا تعوض، في المال، في النفس، في الولد، في العمران، كل ذلك يُعوض، وأرخصه المال، أما مصائب الدين فإنها أعظم المصائب على الإطلاق، ومنها موت العلماء:

أولاً: العالم –أيها الإخوة– زكاه الله تعالى لأنه شهد على وحدانيته وربوبيته، يقول الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية: (لو كان أحدٌ أشرف مِن العلماء لقرن الله ذكره مع ذكره) شهد الله والملائكة وأول العلم، لو كان أحد أشرف من العلماء –من أهل العلم– لقرن الله اسمه مع الملائكة، ولكن ليس هناك أشرف من العلماء، وخاصة أولئك العلماء العاملين، العلماء المصلحين، العلماء الربانيين، العلماء الذين تركوا لهذه الأمة ثروةً عظيمة، فكانوا في حياتهم كنزاً وبعد وفاتهم كنوز، هم كنوز هذه الأمة، إذاً الله تعالى رفع قدر العلماء، فقال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ولاحظوا –أيها الإخوة– كلمة درجات نكرة وليست معرفة، ومن شأن النكرة أنها تُفيد العموم، وهنا قول الله تعالى: ﴿درجات﴾ أي إن الله تعالى أعد للعالم درجات لا يَعلم قدرها وشأنها إلا هو، وهذا مثال تكريم العلماء، والنبي ﷺ يقول: ((فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)) [أخرجه الترمذي] كم هو الفرق كبير بينا

وبين النبي ﷺ؟ إنه فضل عظيم، وكذلك فضل العالم في الأمة على سائر الناس كفضل النبي ﷺ على سائر الخلق، ((العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر)) [أخرجه الترمذي].

أيها الإخوة المؤمنون: يحيى ابن أكثم كان في زمن هارون الرشيد عالماً جليلاً وقاضياً عظيماً، سأله هارون الرشيد ذات يوم: ما أنبل المراتب يا يحيى؟ أي المراتب أعظم وأنبل وأسمى؟ فقال يحيى بن أكثم: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين، إمارتك للمسلمين، خلافتك على الناس، هذه أنبل رتبة وأعلى شيء في الدنيا قدراً، وهارون الرشيد مَن تعرفون، إنه أمير عظيم، كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وانتشرت الفتوحات في عصره، وانتشر العلم، وعمَّ الإسلام، وكان له فضلٌ كبيرٌ على الأمة، فردّ هارون الرشيد على يحيى، وقال: بل أجلُّ من ذلك رجلٌ له حَلقة عِلم يقول فيها: قال الله وقال رسول الله، هذا أجل قدراً وأرفع شأناً وأعلى منزلة من إمامة الناس وخلافة المسلمين، بشهادة هارون الرشيد رحمه الله.

أيها الإخوة المؤمنون: الحاجة إلى هذا الموضوع مُلحّة في هذا العصر الذي نُودّع فيه علماء الأمة واحداً تلو الآخر، ومِن أعظم مَن ودّعنا ومن أعظم مَن فقدنا في هذا الأسبوع المنصرم، شيخاً عظيماً، إماماً فَقهياً، موسوعياً علّامةً، بكل فخر واعتزازٍ نقول: هو فقيه العصر، لم تشهد الدنيا في القرن الذي نعيشه مثل علمه، إنه شيخنا وأستاذنا الدكتور وهبة الزحيلي رحمه الله، الذي كنا ننعُم به في هذا المسجد بيننا في كل جمعة، وفي صلاة الجماعة، وفي درسه الذي كان يلقيه على الناس، كان يَدخل إلى المسجد بكل تواضع، ووالله أنتم أكثر مَن يُجلُّه ويَعرف شأنه، لكنه لما كان يُسافر إلى بلاد الدنيا كان يُبسط له البساط الأحمر ويستقبل كما تستقبل الوفود والزعماء والعظماء، لكنه إذا دخل بيتنا كان يُسلم على الصغير قبل الكبير، رحمك الله يا شيخ الأمة، رحمك الله أيها الشيخ الذي ترَكت لهذه الأمة سفرين عظيمين تستغني بهما عن كل الكتب والمؤلفات: الفقه الإسلامي وأدلته، والتفسير المنير.

أيها الإخوة: هذا العالم الرباني الجليل الذي كان يدخل بيننا بكل تواضع ويجلس في المحراب بكل تواضع ، وكان يخطب على هذا المنبر من قبل، ويُلقي الدروس في المسجد رحل عنا، اشتاق إلى الله، وأنتم كنتم تشهدون بأمِّ أعينكم عبرته ودمعته ورقة قلبه، قَلبه الفيّاض كنتم تشهدون قبله الفيّاض، عندما يدعو لنا بعد الصلاة، أو في صلاة الاستسقاء، أو عندما يُصلي على الجنائز في هذا المسجد، كانت تغلبه عبراته، وتسيل دموعه على خدوده، وكان قبله مُتفطِّراً على هذه الأمة، أتدرون لماذا أيها الإخوة؟ لأن هذا الرجل نشأ في حياته مُستقيماً، شهد له بذلك أقرانه وزملاؤه، وعادةً الأقران يبصرون عيوب بعضهم، فما وجدوا عليه عيباً، وما رأوا فيه زلّةً ولا منقصة، بل كانوا يُثنون عليه مِن شبابه، قرأت عن أحد زملائه الكبار رحمه الله تعالى، عندما ترجم له وكتب دراسةً عنه: قال: عرفته في جامعة الأزهر شاباً بعمامته المدورة البيضاء وجبته السابغة التي يَلبسها على البنطال الإفرنجي، هكذا كان في شبابه العشرينيات من عمره، وهكذا رحل إلى الله في آخر أيامه، حيث نذكر جميعاً عِندما كان في آخر خطبة في هذا المسجد أنه كان يَدخل بجبته وعمامته، هكذا شبابه وهكذا شيبته، وأفنى عمره في العلم والتعليم، والنبي ﷺ يقول: ((خيركم من تعلم القران وعلمه)) [أخرجه البخاري] التفسير المنير كتبه في خمس سنوات، وكان مُغترباً مسافراً خارج البلد، كان في خلوته يُؤلف هذا الكتاب الذي هو تفسير العصر بامتياز، جمع فيه ما لم يَجمعه سواه لا من المتقدمين ولا من المتأخرين، بشهادة أهل العلم، وأما الفقه الإسلامي وأدلته على المذاهب الأربعة، والمسائل المستجدة المعاصرة، والاجتهادات التي ذكرها، والترجيحات العلمية التي نَص عليها في هذا الكتاب، الذي لم يُسبق إليه.

رحم الله هذا الشيخ الجليل، رحم الله هذا العالم الكبير، وعوض الأمة خيراً، اللهم اجرنا في مصيبتنا، وعوضنا خيراً.

أيها الأخوة: إنما قصدت من هذا الموضوع أن نغتنم علماءنا في حياتهم، أن نَرجع لما تركوه من علم، فإذا مات المؤمن ((انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)) [أخرجه الترمذي] فمَاذا ترك هذا الشيخ الجليل مِن الكتب أيها الإخوة؟ ترك ما يزيد على مائة كتاب، مائة مؤلف ويزيد، وليست من المؤلفات العادية، التفسير المنير عشرون مجلداً، الفقه الإسلامي تسعة مجلدات، التفسير الوسيط أربعة مجلدات، أصول الفقه ثلاثة مجلدات، وهكذا العلم الذي خلفه من وراءه، لذلك عندما رحل إلى الله رحل مرتاحاً مُشتاقاً إلى ربه، ومَن اشتاق إلى الله اشتاق الله إليه، فلنغتنم علماءنا في حياتهم قبل مماتهم، ولنعرف لهم قدرهم، وإن أخطر الناس على نفسه من يُؤذي العلماء، ومن ينتقص العلماء، ومن يُسيء إلى العلماء، فقد وردت نصوص كثيرة تُحذر مِن الإساءة إلى أهل العلم، مِن ذلك أن العلماء إنما هم مِن أولياء الله، ومَن آذى ولي من أولياء الله تصدى الله له بالحرب، آذنه الله بالحرب، فالعلماء -أيها الاخوة- هم أهل الصدارة، وخاصة الذين لم يُحرفوا ولم يُبدلوا ولم يتغيروا، واشتغلوا لدينهم ووضعوا دنياهم وراء ظهورهم.

اللهم إنا نسألك في عليائك، في هذا اليوم المبارك، في هذه الساعة المباركة، من هذا المسجد الذي كان يُصلي فيه شيخنا، أن تكتب له المغفرة والرحمة، وأن تجعله في أعلى عِلِّيين، اللهم اجعله في الفردوس الأعلى، اللهم احشره مع سيدنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم على سرر متقابلين، واحشرنا معه، اللهم شفع به سيدنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم وشفعه بنا، اللهم واجعل حق الجوار لأهل هذا الحي وللمصلين في لهذا المسجد ولمن أحبهم الشيخ ولمن أحبوه اجعل ذلك كله سبباً أن نجتمع يوم القيامة على مائدة رسول الله ﷺ لنشرب من يده كاساً لا نظمأ بعدها أبداً يا رب العالمين.

بتصرف

مديرية أوقاف دمشق